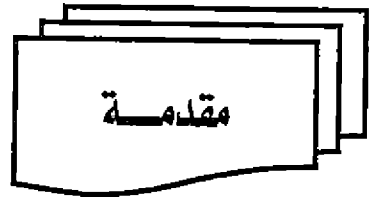

المرأة ... هى الأم وهى الزوجة، هى المودة وهى الرحمة... هى الرقة وهى الحنان، هى اللذة وهى الشهوة ... وقبل كل شىء هى كائن بشرى به جميع المتناقضات مثل الرجل، عاشا بالفضيلة والنقيصة، بالحب والكراهية، بالقسوة والتسامح، بالصلف والمرونة، بالأنانية والإيثار، بالعنف والسلام.... إلى آخره من غرائز وعواطف، وطباع وسمات، خلق بها الإنسان، وتعايش فيها وبها، فى منظومة قائمة على الكفاح والصراع، ينتهى فيها الإنسان إلى ذكرى تؤول إلى الضياع والنسيان .

ظهر مصطلح الجنسية Sexism فى خمسينيات القرن الماضى من خلال كتب النقد الاجتماعى الفرنسى للتمييز بين جنسى البشر ــ ذكر وأنثى ــ ويحدد قيمة ودور كل منهما فى الحياة الاجتماعية على أساس الجنس البيولوجى . يذهب هذا الفكر إلى أن جميع الاتجاهات السياسية، والمذاهب الاجتماعية بما فيها الماركسية والشيوعية التى دعت إلى المساواة المطلقة بين الجنسين، يفترضون أن هذه المذاهب تضمنت قدراً من التمييز بين الجنسين، كلها كانت فى صالح الرجل، وتتجه إلى تحقير النساء وتقييد دورهن فى حياة المجتمع وقصره على إمتاع الرجل وتسليته، وخدمته المنزلية، وإنجاب الأطفال، وإرضاعهم دون الإشراف على تربيتهم . ادعى هذا الفكر أن اتجاهات التمييز الجنسى كامنة فى اللاشعور، عميقة الجذور منذ قدم التاريخ بسبب المصالح الشخصية للرجل . كما ادعى هؤلاء الاجتماعيون أن هذا الفكر يتركز على تحويل المرأة إلى موضوع جنسى فتصبح المرأة مجالاً للتحريم أو الانتهاك ، وكلاهما وجهان لموقف واحد . يأخذ مصطلح « التصنيف الجنسى » Gendér، نفس المعنى من حيث تصنيف البشر حسب الجنس، وما يترتب على هذا التصنيف من دوافع اجتماعية .

يشير مصطلح تسلط الرجال Patriarchy إلى وضع السلطة والسيطرة الذى يتمتع به الرجال بالنسبة للنساء عبر التاريخ المعروف للمجتمعات الإنسانية . كتب سامى خشبة فى كتاب «مصطلحات فكرية» عن تعريف هذا المصطلح : (رغم أن المصطلح أخذ من كلمتين يونانيتين كانتا تشيران إلى نظام قبائلى وأسرى فى اليونان القديمة، عرف باسم نظام : حكم الأب .... فإن المصطلح يشير منذ الستينات ــ من القرن العشرين ــ فى كتابات الحركة الأنثوية فى الغرب إلى معنى حكم الذكور، وسيطرتهم وتسلطهم على المجتمعات بشكل عام ، وعلى النساء خصوصاً فى العالم كله ، وفى هذه الكتابات يبدو « تسلط الرجال » أمراً واقعاً ، وحالة فعلية قائمة تتجلى فى سيطرة الرجال على كل المؤسسات الاجتماعية، كما يبدو تسلط الرجال فى صورة « أيديولوجيا » ، ومفاهيم مطلقة تسيطر على عقول البشر ، وتجعلهم يعتقدون أن الأمر الواقع هو الأمر الطبيعى) . شاعت هذه المفاهيم بعد ما نشرت الكاتبة الأمريكية كاترين ميللت فى عام ١٩٦٩ كتابها « سياسات الجنس » ، قامت فيه بتحليل ظاهرة التصنيف الجنسى فى اللغة، بمعنى التمييز بين الذكر والأنثى، وارتباطه بتطور المجتمعات والأديان وتكوين الأسرة، وارتباط هذه المجالات بما أطلق عليه علماء الأنثروبولوجيا اسم « الانقلاب الذكرى »، الذى قام به الرجال لانتزاع السلطة فى الأسرة من النساء، بعد أن كن قد اخترعن الزراعة وتخزين الطعام، فاستقر الرجل ـ نسبياً ـ ولم يعد يقضى معظم وقته فى الصيد، بعيداً عن الأسرة . بدأ علماء الأنثربولوجيا والاجتماع التاريخى يرفضون فكرة التطور الطبيعى من نظام سيطرة النساء إلى نظام سيطرة الرجال، وذهبوا إلى أن القهر الذكورى مرتبط بالتفوق العضلى للرجال ثم منع المرأة عن العمل والتعليم والرياضة .... إلى آخره ، مما أدى إلى السيطرة الكاملة للرجل ، حتى ظهرت الموجة الجديدة بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل .

فى مقابل مصطلح تسلط الرجال، وجد مصطلح سيطرة النساء Matriarchy الذى يعنى قبض المرأة على زمام أمور الأسرة والعمل، ويقتصر دور

الأب على مساعدة الأم على الإنجاب . غير أن المصطلح يستخدم فى الوقت الحالى بمعنى تحرير المرأة من سيطرة الرجل، وحصولها على حق التصرف فى شئونها الخاصة، وإنشاء منظمات نسائية تهتم بشئونها وتراعى حقوقها. يستخدم هذا المصطلح أيضا فى الإشارة إلى الشخصيات النسائية التى تحتل مكانة رفيعة فى مجال الأعمال أو فى الأنشطة الاجتماعية،أو إشارة إلى المجتمعات التى ينتسب فيها الأبناء إلى الأمهات فيكون تسلسل النسب أموياً وليس أبوياً مثل المجتمع المصرى الفرعونى،أو إشارة إلى بعض نظم القبائل البدائية التى تكون فيها السيطرة للنساء.

يظهر الطفل على وجه الحياة حاملاً جيناته الوراثية وغرائزه الفطرية، ثم يبدأ بعد ذلك فى اكتساب الخبرات الإنسانية من الوالدين . يتلقى الإنسان منذ الصغر التراث الخلقى والاجتماعى الذى خلقه الأسلاف. والطفل من الناحية البيولوجية غير مهيأ للنظام الحضارى أو للمدينة التى تحكمها القيم الأخلاقية والقوانين الوضعية لأن غرائزه الكامنة فى جيناته تهيئه فقط للمواقف التقليدية ولا تحتوى إلا على الاستجابة للمثيرات وإشباع الاحتياجات الأولية مثل الأكل والشرب والجنس . ولد الإنسان وهو لايعرف شيئاً عن الفضيلة أو الرذيلة، أو عن الأخلاق أو الإثم والخطيئة، أو غيرها من التعبيرات الكثيرة التى صنعها وشكلها الإنسان . ومع التطور التاريخى، وتفاعل الملل الإنسانى من الرتابة والتكرار، ومع معاناة الإنسان من فوضى العلاقات الإنسانية التى لم يحكمها رادع أو جزاء، بدأ الإنسان فى التفكير وإعادة النظر فى سلوكه وأسلوب حياته، حينئذ ظهرت الفلسفة فى صورتها الأولية حول محور الأخلاق والقيم، والخطأ والصواب، ومع تطور المدنية تشكلت وطبقت القوانين الوضعية قبل ظهور الشرائع السماوية التى أنزلها الخالق على عباده . لم يلتزم الإنسان بدين واحد، أو قيم ثابتة أو أخلاق جامدة، وأنما أخذ مع مرور الأيام فى إعادة تشكيلها وتحويرها ثم إعادة تشكيلها ، لتتشعب تجارب الإنسان وتنقسم إلى ثقافات مختلفة بكل ما فيها من عادات وتقاليد وقيم ومعايير أخلاقية ، .... ومنظور اجتماعى إلى وضع المرأة .

إذا كانت الأسطورة هى قصة رمزية – تكون فى أغلب الأحيان خرافية أو غير حقيقية – فإن الأدب الشعبى نتاج تفاعل الإنسان فى واقعه الاجتماعى والثقافى والسياسى ، ويأتى تراث الأجيال السابقة ليعكس مخزون هذه الأجيال على العادات والتقاليد والقيم السائدة . احتلت المرأة فى الأدب الشعبى العربى / المصرى مكانة أدنى كثيرا من مكانة الرجل ، فيتمثل دور المرأة فى القصص الشعبية فى وظيفتها التى تستمدها من كونها أنثى ، فاحتلت أدوار : الحبيبة والأم والحماة ، مركز الصدارة فى الغالبية العظمى من القصص الشعبية ، بينما تمثلت الأدوار الأخرى مثل المرأة العاملة فى العصر الحديث ، وبرز دور المرأة المقاتلة فى القصص التى تدور حول المعارك والغزوات التى دارت فى عصر ظهور الإسلام ، حيث كانت المرأة عنصرًا إيجابيًا مشاركًا فى معظم الأحداث . تعتبر ألف ليلة وليلة من أكثر المؤلفات الغنية بالأدوار التى اضطلعت بها المرأة . إرتبط دور المرأة العاشقة فى الأدب الشعبى بالخيانة ونسج المكائد ، ووضع الحيل لتصل إلى حبيبها أو عشيقها ، حتى وإن كان ضحية هذه المكائد الزوج . وفى الأسطورة تتضح نظرة المجتمع وفلسفته فى الحياة ، وما وصل إليه خياله وأوهامه. فى قديم الزمان حاول الرجل أن يفهم طبيعة المرأة ففشل ، فأخذ ينسج حولها الأساطير لينال منها ، ويفرغ الشحنة الانفعالية التى تسببت فيها المرأة . حتى العلم الحديث قد ساعد على ترسيخ فكرة دونية المرأة ، فالنساء كما ذهب عالم الاجتماع ليفى شتراوس هن أول ما استعمل فى المقايضة كبديل للنقود ، أو كما أشاع علماء الأنثروبولوجيا بأن الذكور فى العصور القديمة كانوا يجرون فى البرارى والأدغال بحثا عن أنثى شاردة لاغتصابها .

تدور معظم الأمثال الشعبية المصرية المتعلقة بالمرأة حول كونها أنثى مرتبطة بالرجل ، دون إعتبار لقدراتها كإنسان . تنصب هذه الأمثال على العلاقة الزوجية والأمومة والإنجاب وطاعة الزوج، وتؤكد هذه الأمثال على القيم السائدة فى المجتمع من تعظيم دور الذكر وتفضيله على الأنثى ، والاهتمام بالذات الجسدية لدى المرأة دون العقل والنبوغ والذكاء . وفى المقابل ، كانت أكثر الأسباب التى تحث

على الحيل الدفاعية شيوعا لدى النساء هو الاحتياج، والخوف من فقدان الحبيب أو الزوج. تتخذ الأغنية الشعبية – المرتبطة بالمرأة – جسد المرأة ولون بشرتها كنقطة انطلاق للتعبيرات المتباينة، للتأكيد على القيم الاجتماعية السلبية التى يحيا من خلالها مجتمعنا رغم تطور وضع ومكانة المرأة. كتبت الدكتورة عزيزة السيد فى هذا المجال : (إنها فى تعبيرها عن مضمون القيم وغيرها إنما تحاول أن تبرز قيمة المرأة من خلال صفاتها الجسدية فحسب. فتكون محور المساومة فى عملية تقدير المهر، وفى المفاضلة بين رجل برجل آخر. وجدير بالذكر هنا ، ما تذكره هذه الأغانى من رغبة جنسية صريحة حتى فى أغانى القرى الصعيدية المتزمتة، وبنفس القيمة – وهى الجسد – تحصل المرأة على ما تريد، أو تفض منازعاتها مع الزوج).

تساوى التراث الشرقى مع التراث الغربى – حتى منتصف القرن الماضى – فى منظوره الملىء بالغدر والشك والخيانة من جهة المرأة، حتى إن الفيلسوف الألمانى نيتشه شبه غدر الحياة بالمرأة : (فالحياة شىء خبيث لعوب قد يخدعنا. فهى تارة تهزأ بنا، وطورا تثير فينا الأمل وتحمل على الإقبال عليها. لعل أعظم سحر للحياة هو أنها منتقبة بنقاب ذهبى مصنوع من الآمال المعسولة الجميلة، والممكنات الخلابة، فتراها تعد وتتأبى وتدعى العفاف، وتترفع وتترفق وتغوى. أجل، إن الحياة امرأة تثير فى نفوسنا الشك، وتحملنا على الحذر منها وعدم الاطمئنان إلى صحبتها وحبها، ولكنا مع ذلك لا نستطيع إلا أن نحرص عليها ونقول لها : نعم .. بكل قوانا).

عبرت الكاتبة الفرنسية التى تسمت باسم جورج صاند، عن غموض نفسية المرأة فقالت على لسانها: عرفت ثلاثة رجال، أعطانى الأول عقدا من الجواهر الثمينة يعادل ثمنه مدينة بأسرها من مبانيها وقصورها. ونظم الثانى من أجلى ديوانا من الشعر فيه أجمل وأرق الكلام. والثالث تخجل الحسناء من جماله، فكان يجثو أمامى راكعًا باكيًا ... ولم أعر هؤلاء أى اهتمام. أما أنت يا من أحبه ... فلم تعطنى شيئا، ولم تقل لى حلو الكلام، ولست جميلا، ولكنك أنت وحدك الذى أحبه.

وفى نهاية البداية ، قال الفيلسوف الأغريقى سقراط لأحد تلاميذه : «تزوج يا بنى ... فإنك إن رزقت بامرأة صالحة أصبحت أسعد مخلوق على وجه الأرض ... وإذا كانت شريرة صرت فيلسوفا». إن المرأة مثل النحلة ، فهى قد تعطيك «عسلا» أو تعطيك «لسعا» ، وكلتا الكلمتين لهما نفس الحروف ، ولكن تستطيع المرأة أن تغير فى ترتيبها وفقا لمزاجها وظروفها . لقد خلق الله الإنسان فى كبد ، وخلق الرجل لكى يجتهد ويكد ويتعب ، حتى يمكنه الحصول على العسل ، راجيا من الله ألا ينتهى صبره «بالعسل المر» .